تذكير بقصة أخرى أرى ا تعالى أسلافهم فيها بطشه ورحمته فلم يرتدعوا ولم يشكروا وهي أن أخذ الميثاق عليهم بواسطة موسى عليه السلام أن يعملوا بالشريعة وذلك حينما تجلى ا لموسى عليه السلام في الطور تجليا خاصا للجبل فتزعزع الجبل وتزلزل وارتجف وأحاط به دخان وضباب ورعود وبرق كما ورد في صفة ذلك في الفصل التاسع عشر من سفر الخروج وفي الفصل الخامس من سفر التثنية فلعل الجبل من شدة الزلازل مما ظهر حوله من الأسحبة والدخان والرعود صار يلوح كأنه سحابة ولذلك وصف في آية الأعراف بقوله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) " نتقه زعزعه ونقضه " حتى يخيل إليهم أنه يهتز وهذا نظير قولهم استطارة إذا أزعجه فاضطرب فأعطوا العهد وامتثلوا لجميع ما أمرهم ا تعالى وقالوا " كل ما تكلم ا به نفعله فقال ا لموسى فليؤمنوا بك إلى الأبد " وليس في كتب بني إسرائيل ولا في الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن ا قلع الطور من موضعه ورفعه فوقهم وإنما ورد ذلك في أخبار ضعاف فلذلك لم نعتمده في التفسير . وضمائر الخطاب لتحميل الخلف تبعات السلف كيلا يقعوا في مثلها وليستغفروا لأسلافهم عنها . والميثاق في هاته الآية كالعهد في الآيات المتقدمة مراد به الشريعة ووعدهم بالعمل بها وقد سمته كتبهم عهدا كما قدمنا وهو إلى الآن كذلك في كتبهم . وهذه معجزة علمية لرسولنا A .

والطور علم على جبل ببرية سينا ويقال إن الطور اسم جنس للجبال في لغة الكنعانيين نقل إلى العربية وأنشدوا قول العجاج : .

دانى جناحيه من الطور فمر ... تقضى البازي إذا البازي كسر فإذا صح ذلك فإطلاقه على هذا الجبل علم بالغلبة في العبرية لأنهم وجدوا الكنعانيين يذكرونه فيقولون الطور يعنون الجبل كلمة لم يسبق لهم أن عرفوها فحسبوها علما له فسموه الطور . وقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) مقول قول محذوف تقديره قائلين لهم خذوا وذلك هو الذي أخذ الميثاق عليه . والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم . والقوة مجاز في الإيعاء وإتقان التلقي والعزيمة على العمل به كقوله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) . ويجوز أن يكون الذكر مجازا عن الامتثال أي اذكروه عند عزمكم على الأعمال حتى تكون أعمالكم جارية على وفق ما فيه أو المراد بالذكر التفهم بدليل حرف " في " المؤذن بالظرفية المجازية أي استنباط الفروع من الأصول . والمراد بما آتاهم ما أوحاه إلى موسى وهو الكلمات العشر التي هي قواعد شريعة التوراة .

وجملة (لعلكم تتقون) علة للأمر بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) ولذلك

فصلت بدون عطف .

والرجاء الذي يقتضيه حرف (لعل) مستعمل في معنى تقريب سبب التقوى بحضهم على الأخذ بقوة وتعهد التذكر لما فيه فذلك التقريب والتبيين شبيه برجاء الراجي . ويجوز أن يكون لعل قرينة استعارة تمثيل شأن ا حين هيأ لهم أسباب الهداية بحال الراجي تقواهم وعلى هذا محمل موارد كلمة (لعل) في الكلام المسند إلى ا تعالى . وتقدم عند قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) الآية .

وقوله (ثم توليتم من بعد ذلك) إشارة إلى عبادتهم العجل في مدة مناجاة موسى وأن ا تاب عليهم بفضله ولولا ذلك لكانوا من الخاسرين الهالكين في الدنيا أو فيها وفي الآخرة .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في مسألة التكليف الإلجائي ومنافاة الإلجاء للتكليف وهي مسألة تكليف الملجأ المذكورة في الأصول لأنها بنيت هنا على أطلال الأخبار المروية في قلع الطور ورفعه فوقهم وقول موسى لهم إما أن تؤمنوا أو يقع عليكم الطور على أنه لو صحت تلك الأخبار لما كان من الإلجاء في شيء إذ ليس نصب الآيات والمعجزات والتخويف من الإلجاء وإنما هو دلالة وبرهان على صدق الرسول وصحة ما جاء به والممتنع في التكليف هو التكليف في حالة الإلجاء لا التخويف لإتمام التكليف فلا تغفلوا .

(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين [65]

فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين [66]) E A